

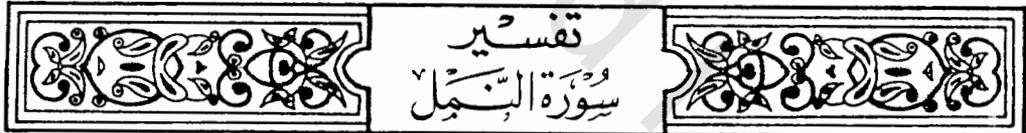
الله فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقاً، فقال النبي ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقها في أذن وليه كقرقرة الدجاج فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة».

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾

﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ يتبعهم ضلال الإنس والجن ﴿يَهِيمُونَ﴾ في كل لغو يخوضون. روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعوج إذ عرض شاعر ينشد، فقال النبي ﷺ «خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان، لأن يمتلىء جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً» ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ أكثر قولهم يكذبون فيه.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

لما نزلت ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [الشعراء: 224] جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ، وهم يبكون، قالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء فتلا النبي ﷺ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال «أنتم» ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال: «أنتم» ﴿وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ قال: «أنتم» ﴿وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا...﴾ أي من الشعراء وغيرهم، والآية عامة في كل ظالم.



تفسير سورة النمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾﴾

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ﴾ هذه آيات ﴿الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي بين واضح.

﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ الَّذِينَ يُعِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ

يُوقُونَ ﴿٢﴾﴾

﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ أي إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه

وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وأيقن بالدار الآخرة، والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها، والجنة والنار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي يكذبون بها، ويستبعدون وقوعها ﴿رَبَّنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي حسنا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غيهم، فهم يتيهون في ضلالهم، وكان هذا جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴿٥﴾﴾

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ﴾ أي ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر.

﴿وَإِنَّكَ لَلنَّاقِيِ الْقُرْآنَاتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾

﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَلنَّاقِيِ﴾ أي لتأخذ ﴿الْقُرْآنَاتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي من عند حكيم عليم، أي حكيم في أمره، ونبيه، عليم بالأمر جليلها وحقيرها، فخبره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: 115].

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنستُ نارا سأتيكم منها بخبرٍ أو آياتكم إيهابٍ فبئس لعلكم

تصطلون ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام، كيف اصطفاه وكلمه وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة، والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملته فجحدها بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ﴾ أي اذكر حين سار موسى بأهله فأضل الطريق، وذلك في ليل ظلام فأنس من جانب الطور ناراً أي رأى ناراً تأجج وتضطرم فقال ﴿لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنستُ نارا سأتيكم منها بخبرٍ﴾ أي عن الطريق ﴿أو آياتكم إيهابٍ فبئس لعلكم تصطلون﴾ أي تستدفنون به، وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نوراً عظيماً.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُورِي أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُورِي أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ أي فلما أتاها ورأى منظراً هائلاً عظيماً حيث انتهى إليها، والنار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقداً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء، قال ابن عباس وغيره: لم تكن ناراً، وإنما كانت نوراً يتوهج ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي من الملائكة ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي الذي يفعل ما يشاء، ولا يشبهه شيء من

مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم، المبين لجميع المخلوقات، ولا يكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات.

﴿يُمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

﴿يُمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه العزيز الذي عز كل شيء وغلبه، الحكيم في أقواله وأفعاله.

﴿وَأَلْقَ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَّوَّمٌ يَّعْقَبُ يَمْوَسِي لَّا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىٰ

الرَّسُلُونَ ﴿١٠﴾﴾

ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار، القادر على كل شيء، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة في غاية الكبر، وسرعة الحركة مع ذلك، ولهذا قال ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ والجان ضرب من الحيات، أسرع حركة، وأكثره اضطراباً. فلما عين موسى ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَّوَّمٌ يَّعْقَبُ﴾ أي لم يلتفت من شدة فرقه ﴿يَمْوَسِي لَّا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىٰ الرَّسُلُونَ﴾ أي لا تخف مما ترى، فإني أريد أن أصطفيك رسولاً، وأجعلك نبياً وجيهاً.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْتًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْتًا بَعْدَ سُوءٍ . . .﴾ هذا استثناء منقطع، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كن على عمل سييء ثم أفلح عنه، ورجع وتاب فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: 82].

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِن غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

فٰسِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِن غَيْرِ سُوءٍ﴾ هذه آية أخرى، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل السختر، وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر، لها لمعان تتلألاً كالبرق الخاطف. وقوله: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ أي هاتان تستان من تسع آيات، أو يدك بهن وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فٰسِقِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي بينة واضحة ظاهرة ﴿قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وأرادوا معارضتهم بسحرهم فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين.

﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَحَمَدُوا بِهَا﴾ أي في ظاهر أمرهم ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ أي علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها، وعاندوها وكابروها ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي ظلماً من أنفسهم، سجية ملعونة، وعلوًّا، واستكباراً عن اتباع الحق، ولهذا قال ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة، وفحوى الخطاب يقول: احذروا أيها المكذبون لمحمد الجاحدون لما جاء به من ربه أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى، فإن محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به وأخذ الموثيق له. عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْاَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه: داود وابنه سليمان ﷺ من النعم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أي في الملك والنبوة، وليس المراد وراثة المال، إذ لو كان ذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، فإنه قد كان لداود مائة امرأة، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة» ﴿وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ أي أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام، والتمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطيور، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به رسوله ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي مما يحتاج إليه الملك ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي الظاهر البين لله علينا.

﴿وَحِثْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

أي وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطيور، يعني ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلونه والجن، وهم بعدهم في المنزلة، والطيور، ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حر أظلمته منه بأجنحتها. وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يكف أولهم على آخرهم، لثلا يتقدم أحد

على منزلته التي هي مرتبة له، قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة يردون أولها على آخرها لئلا يتقدموا في المسير كما يفعل الملوك اليوم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ أي حتى إذا مر سليمان ﷺ بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي خافت النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ففهم ذلك سليمان ﷺ منها.

﴿فَنَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿فَنَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ أي ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، ولإيمان بك ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي عملاً تحبه وترضاه ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك. والغرض أن سليمان ﷺ فهم قولها، وتبسم ضاحكاً من ذلك، وهذا أمر عظيم جداً. وقد ثبت في الصحيح عند مسلم عن النبي ﷺ: «قرصت نبياً من الأنبياء نملة، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأرحى الله إليه، أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟ فهلا نملة واحدة؟».

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَأَ أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاعِيينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَأَ أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاعِيينَ﴾ أخطأه بصري من الطير أم غاب فلم يحضر؟ وعن ابن عباس وغيره أن الهدهد كان يدل سليمان ﷺ على الماء إذا كان بأرض فلاة طبه فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلهم عليه أمر سليمان ﷺ الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبت الماء من قراره.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يعني نفي ريشه ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ يعني قتله ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بعذر واضح.

﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾
 ﴿فَمَكَتْ﴾ أي الهدهد ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي غاب زماناً يسيراً، ثم جاء فقال لسليمان ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ أي بخبر صدق حق يقين، وسبأ: هم حمير، وهم ملوك اليمن.

﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾
 ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ﴾ هي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك الممكّن ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب، وأنواع الجواهر واللآلئ.

﴿وَجَدْتُمَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾
 ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي عن طريق الحق ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿أَلَا سَجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾
 ﴿أَلَا سَجُدُوا لِلَّهِ﴾ أي فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله، أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعلم كل خبيثة في السماء والأرض. وخبء السماوات والأرض ما جعل فيهما من الأرزاق: المطر من السماء، والنبات من الأرض. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، وهذا كقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَيْلٍ وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: 10].

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾
 ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ أي هو المدعو «الله» وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم الذي ليس في المخلوقات أعظم منه. ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده، والسجود له نهى عن قتله كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصرد. وإسناده صحيح.

﴿قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾
 يقول تعالى مخبراً عن قيل سليمان للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم ﴿قَالَ سَنْظُرُ﴾

أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٢٧﴾ أي أصدقت في إخبارك هذا ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَذَّابِينَ﴾ في مقاتلك لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟

﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَهٗ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوٓأِ إِلَىٰ أَتَىٰ عَلَىٰ كِتَابِ كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾﴾

﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَهٗ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها، وأعطاه ذلك الهدهد فحمله، قيل: في جناحيه كما هي عادة الطير، وقيل: بمنقاره، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية أدباً ورياسة، فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته فإذا فيه:

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾
 ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها. ثم قالت لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوٓأِ إِلَىٰ أَتَىٰ عَلَىٰ كِتَابِ كَرِيمٍ﴾ [النمل: 29] تعني بكرمه ما رآته من عجيب أمره، كون طائر ذهب به فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدباً، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام، وأنه لا قبل لهم به، وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها. ﴿أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ﴾ لا تمتنعوا ولا تتكبروا ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ موحدين مخلصين طائعين.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوٓأِ أَتُوتَنِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾
 لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها، وما قد نزل بها، ولهذا قالت ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوٓأِ أَتُوتَنِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ أي تحضرون وتشيرون.

﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَاؤُا فُؤُوٓا وَأَوْلُوا بِأَيِّ شَيْدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾
 ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَاؤُا فُؤُوٓا وَأَوْلُوا بِأَيِّ شَيْدٍ﴾ أي منوا إليها بعددهم وعددهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي نحن ليس بنا عاقبة، ولا بنا بأس، إن شئت أن تقصديه وتحاربه فما لنا عاقبة عنه، وبعد هذا فالأمر إليك، مري فينا رأيك نمثله ونطيعه. قال الحسن البصري رحمه الله فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثديها، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم رأياً منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه، وما سخر له من الجن والإنس ولطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعاً، فقالت لهم: إني أخشى أن

نحاربه ومنتع عليه فيقصدنا بجنوده، ويهلكنا بمن معه، ويخلص إلي وإيكم الهلاك، والدمار دون غيرنا، ولهذا:

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآهَآ أَذًىٰ ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ أي إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه أي خربوه ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَآهَآ أَذًىٰ﴾ أي وقصدوا من فيها من الولاة والجنود، فأهانوهم غاية الهوان، إما بالقتل أو الأسر وقوله: ﴿وَكذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ هذا من كلام الرب، كما قال ابن عباس.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي سأبعث إليه بهدية تليق بمثله، وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل منا، ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه في كل عام، ونلتزم بذلك، ويترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس. وعن ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُنِيدُونَ بِمَالِ بَعَالٍ ءَاتَيْنَهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَانِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ فَفَرِحُونَ ﴿٣٦﴾﴾

ذكر غير واحد من المفسرين من السلف وغيرهم أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك، والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب. والظاهر أن سليمان عليه السلام لم ينظر إلى ما جاؤوا إليه بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه، وقال منكرأ عليهم ﴿أُنِيدُونَ بِمَالِ﴾ أي أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم ﴿فَمَّا ءَاتَيْنَهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَانِكُمْ﴾ أي الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه. ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ فَفَرِحُونَ﴾ أي أنتم الذين تتقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف.

﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذًىٰ ۖ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أي بهديتهم ﴿فَلَنَأَيِّنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ أي لا طاقة لهم بقتالها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذًىٰ﴾ أي ولنخرجهم من بلدتهم أذلة ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي مهانون مدحورون. فلما رجعت إليها رسلها بهديتها، وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة معظمة لسليمان، نأوية متابعته في الإسلام، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه، ووفودهم إليه فرح بذلك وسره.

﴿قَالَ يَتَابِئُهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٢٨)

شخصت إلى سليمان حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ممن تحت يده فقال ﴿يَتَابِئُهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وقد وصفوا عرشها أنه من ذهب، وقوائمه من لؤلؤ وجوهر، وكان مستراً بالديباج والحريير. وقد كره أن يأخذه بعد إسلامهم، وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودماؤهم.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَإِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ (٣٩)

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ مارد من الجن ﴿أَنَا ءَإِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قبل أن تقوم من مجلسك، فقد كان يجلس للناس للقضاء، والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ أي قوي على حمله، أمين على ما فيه من الجواهر.

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَإِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٤٠)

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قيل: هو آصف بن برخياء كاتب سليمان، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم ﴿أَنَا ءَإِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكلم بصرك إلا وهو حاضر عندك، فلما عين سليمان وملاه ذلك وراه مستقراً عنده ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أي هذا من نعم الله علي ﴿لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: 46] وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أي هو غني عن العباد وعبادتهم، أي كريم في نفسه وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست منتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: 8] وفي صحيح مسلم «يقول الله تعالى: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كنوا على اتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

﴿قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَنْتَدِيءُ أَمْ نَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٤١)

لما جيء سليمان ﷺ بعرش بلقيس قبل قدومها أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها، وثباتها عند رؤيته هل تقدم على أنه عرشها، أو أنه ليس بعرشها فقال ﴿نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَنْتَدِيءُ أَمْ

نَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٣﴾ قال ابن عباس: نزع منه نصوصه ومرافقه، وقال مجاهد أمر به فغير ما كان أحمر جعل أصفر، وما كان أصفر جعل أحمر، وما كان أخضر جعل أحمر، غير كل شيء عن حاله.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشِي قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشِي﴾ أي عرض عليها عرشها وقد غير ونكر، وزيد فيه ونقص منه فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعده مسافته عنها، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته، وإن بدل ونكر وغير فقالت ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أي يشبهه ويقاربه، وهذا غاية في الذكاء والحزم ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ هذا من تمام كلام سليمان ﷺ.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا من تمام كلام سليمان ﷺ، أي منعها من عبادة الله وحده، ﴿مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ وهي إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح.

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ﴾

قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ وذلك أن سليمان ﷺ أمر الشياطين فبنوا لها قصرًا عظيمًا من قوارير، أي من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا﴾ لا تشك أنه ماء تخوضه ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ﴾ فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله عز وجل وحده، وعاتبها في عبادة الشمس من دون الله ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فأسلمت وحسن إسلامها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح ﷺ حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ مؤمن وكافر.

﴿قَالَ يَنْقُورِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ ۗ﴾

تُرْحَمُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿قَالَ يَنْقُورِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي لم تدعون بحضور العذاب، ولا تطلبون من الله رحمته، ولهذا قال ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَيَمِّنُ مَعَكَ قَالِ طَتَّيَّرَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (٤٧)

﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَيَمِّنُ مَعَكَ﴾ أي ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً، وذلك أنهم لشفتائهم كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال: هذا من قبل صالح وأصحابه، كما قال تعالى إخباراً عن قوم فرعون ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الإسراء: 131] وقوله: ﴿قَالِ طَتَّيَّرَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي الله يجازيكم على ذلك ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تبتلون بالطاعة والمعصية، والظاهر أن المراد بقوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (٤٨)

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة، وهموا بقتل صالح أيضاً، بأن بيئته في أهله ليلاً فيقتلوه غيلة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه: إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي مدينة ثمود ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي تسعة نفر ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم. هؤلاء هم الذين عقروا الناقة، أي الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم. قبحهم الله ولعنهم، وقد فعل ذلك. وكان صفات هؤلاء الإفساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها.

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا

لَصَادِقُونَ﴾ (٤٩)

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام من لقيه ليلاً غيلة، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ...﴾ عن ابن عباس قالوا حين عقروا الناقة لنبيتين صالحاً وأهله فنقتلهم، ثم نقول لأوليائه صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به علم، فدمرهم الله أجمعين.

﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٠) فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥١) فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٣)

﴿فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾ أي فارغة ليس فيها أحد ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا

يَتَّقُونَ﴾ (٥٣).

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه أُنذر قومه نعمة الله بهم في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة، استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء فقال ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي يرى بعضكم بعضاً، وتأتون في ناديكم المنكر؟

﴿أَيُّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿أَيُّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي لا تعرفون شيئاً، لا طبعاً ولا شرعاً، كما قال في الآية الأخرى ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء: 165-166].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

أي يتخرجون من فعل ما تفعلون ومن إقراركم على صنعكم، فأخرجوهم من بين أظهركم، فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم، فعزموا على ذلك، فدمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها.

﴿فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ فَذَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ فَذَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي من الهالكين مع قومها، لأنها كانت رداءً لهم على دينهم، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط، ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكريماً لنبي الله عليه السلام، لا كرامة لها.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي حجارة من سجل منسود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببيعد. ولهذا قال ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار، فخالفوا الرسول وكذبوه وهموا بإخراجه من بينهم.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى أمراً رسول الله عليه السلام أن يقول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى، والأسماء الحسنى، وأن يسلم على عباده الذين اصطفاهم واختارهم، وهم رسله وأنبيأؤه الكرام. عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، فالمراد

عباده الذين اصطفى هم الأنبياء، وهو كقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨١) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨٢) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٣) [الصفات: 180-182] وقيل: هم أصحاب محمد ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين، ولا منافاة، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأخرى. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ وَأَنْبَتْنَا بِهَاجَةِ مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (١٦٠)

ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ أي خلق تلك السماوات في ارتفاعها وصفائها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة، والنجوم الزاهرة، والأفلاك الدائرة، وخلق الأرض في استفالها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار، والفيافي والقفار، والزروع والأشجار، والثمار والبحار والحيوان على اختلاف الأنصاف والأشكال والألوان وغير ذلك ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي جعله رزقاً للعباد ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ أي بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي منظر حسن وشكل بهي ﴿مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أي لم تكونوا تقدر على إنبات أشجارها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك المتفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد كما يعترف به هؤلاء المشركون ﴿وَكَلِمَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: 87] ﴿أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ أي أله مع الله يعبد، أو يفعل هذا، وقد تبيّن لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أنه الخالق الرازق ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾؟ [النحل: 17] ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي يجعلون لله عدلاً ونظيراً.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٦١)

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي قارة ساكنة ثابتة لا تحيد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً وبساطاً ثابتة، لا تنزل ولا تتحرك ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أي جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة، شقها في خلالها، وصرفها فيما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض، وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبلاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تحيد بكم ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً أي مانعاً يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالاً يسقي

الحيوان والنبات والثمار منها. والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً أجاباً لثلا يفسد الهواء بريحتها كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يَمِلُّ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [53] ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ؟﴾ أي فعل هذا، أو يعبد؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي في عبادتهم غيره.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَأَلَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٢)

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل كما قال تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ﴾ [الإسراء: 67] وقال تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِنَّكُمْ تَحْنُرُونَ﴾ [النحل: 53] وهكذا قال هنا ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه؟ ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ كما قال تعالى ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَدَلِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ مُّأَخَرِينَ﴾ [الانعام: 133] وهكذا في هذه الآية ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم، ولو شاء لأوجدتهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض، وتضيق عليهم معاشهم وأكسابهم، ويتضرر بعضهم ببعض، ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يكثرهم غاية الكثرة، ويذرههم في الأرض، ويجعلهم قروناً بعد قرون، وأمماً بعد أمم حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية، كما قدر ذلك تبارك وتعالى وكما أحصاهم وعدهم عدداً، ثم يقيم القيامة، ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله. ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ أي يقدر على ذلك، أو إله مع الله بعد هذا؟ وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له. ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق، ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَأَلَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٣)

يقول تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أي بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية كما قال تعالى ﴿وَعَلَّمَنَّا وَإِلْتَجِمَ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16] ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجدبيين القنطين ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦﴾﴾

أي هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده كما قال ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَعِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: 13] ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بما ينزل من مطر السماء، وينبت من بركات الأرض كما قال تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّلْعِ ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: 11-12] فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركاً فيسلكه ينابيع في الأرض، ثم يخرج به أنواع الزروع والشمار والأزاهير وغير ذلك من ألوان شتى ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٩٤﴾﴾ [طه: 54] ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾ أي فعل هذا، إله مع الله يعبد؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما تدعون من عبادة آلهة أخرى ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [المؤمنون: 117].

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق: إنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله وقوله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي لا يعلم أحد ذلك إلا الله عز وجل، فإنه المنفرد بذلك وحده لا شريك له. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي وما يشعر الخلائق الساكنون في السماوات والأرض بوقت الساعة كما قال تعالى ﴿تَنَزَّلُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً﴾ [الأعراف: 187].

﴿بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها، أو تساوى علمهم في ذلك، كما في الحديث «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» أي تساوى في العجز عن درك ذلك: علم المسؤول وعلم السائل، أو غاب علمهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَيْنًا لَمُخْرَجُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً، ثم قال ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [النمل: 68] أي ما زلنا نسمع بهذا نحن وآبائنا: ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: 25] أي هذا الوعد بإعادة الأبدان أخذه قوم عن قبلهم من كتب يتلقاه بعض عن بعض، وليس له حقيقة.

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أي المكذبين بالرسول، وبما جاؤوهم به من أمر المعاد وغيره، كيف حلت بهم نقمة الله وعذابه ونكاله، ونجى الله من بينهم رسله الكرام، ومن اتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿٧٦﴾

ثم قال تعالى مسلماً لنبيه ﷺ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي المكذبين بما جئت به، ولا تأسف عليهم، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: 8] ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي في كيدك ورد ما جئت به، فإن الله مؤيدك وناصرك، ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في سؤالهم عن سؤالهم عن يوم القيامة، واستبعادهم وقوع ذلك ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٧٦﴾.

﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿٧٦﴾

قال تعالى مجيباً لهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أن يكون قرب، أو أن يقرب لكم بعض الذي تستعجلون، وهو كقوله ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: 51] وإنما دخلت اللام في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ لأنه ضمن معنى عجل لكم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَسْأَلْتَهُمْ لَيَسْكَرُنَّ﴾ ﴿٧٦﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي في إسباغته نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٧٦﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر ﴿سَوَاءٌ مَنكُم مَّنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَن هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: 10] ﴿يَعْلَمُ الْبُتْرَ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7] ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَفْتُونَ يَاجِبُهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسْتَفْتُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [معد: 5].

﴿وَمَا مِنَّ غَابَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٧٥﴾

ثم أخبر تعالى أنه عالم غيب السماوات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه فقال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّ غَابَةٍ﴾ يعني وما من شيء ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا كقوله ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: 70].

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٧٦)

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان أنه يقصص على بني إسرائيل، وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كاختلافهم في عيسى، وتباينهم فيه، فاليهود افتروا والنصارى غلوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل أنه عبد من عباد الله، وأنبيائه ورسله الكرام، عليه أفضل الصلاة والسلام، كما قال تعالى ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٢٢) [مریم: 34].

﴿وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٧)

﴿وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هدى لقلوب المؤمنين به، ورحمة لهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٨)

ثم قال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي في انتقامه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٧٩)

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي في جميع أمورك، وبلغ رسالة ربك ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ أي أنت على الحق المبين، وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة، و﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦) ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ [يونس: 96، 97].

﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (٨٠)

ولهذا قال ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ﴾ أي لا تسمعهم شيئاً ينفعهم، فكذلك هؤلاء، على قلوبهم غشاوة، وفي ذانهم وقر الكفر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨١)

أي إننا نستجيب لك من هو سميع بصير السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة، الخاضع لله ولما جاء منه على السنة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا

يُوقِنُونَ﴾ (٨٢)

هذه النابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله، وتبديلهم الدين الحق. روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من

مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم عليه السلام، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث أقبلوا» وهكذا رواه مسلم، وأهل السنن. قال ابن جريج عن ابن الزبير: إنه وصف الدابة فقال: رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيل، وعنقها عنق نعامه، وصدورها صدر أسد، ولونها لون نمر، خاصرتها خاصرة هر، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً، تخرج معها عصا موسى، وخاتم سليمان فلا يبقى مؤمن إلا نكتت في وجهه بعضا موسى نكتة بيضاء، فتغشو تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه، ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان فتغشو تلك النكتة حتى يسود بها وجهه حتى أن الناس يتبايعون في الأسواق بكم ذا يا مؤمن، بكم ذا يا كافر؟ وحتى إن أهل البيت يجلسون على مائدتهم فيعرفون مؤمنهم من كافرهم، ثم تقول لهم الدابة: يا فلان أبشر أنت من أهل الجنة، ويا فلان أنت من أهل النار.

﴿يَوْمَ تَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول مخبراً عن يوم القيامة وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله عز وجل ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا تقريباً وتوبيخاً، وتصغيراً وتحقيراً فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي من كل قوم وقرن فوجاً. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يدفعون، أو يرد أولهم على آخرهم، أو يساقون.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمًا أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو﴾ ووقفوا بين يدي الله عز وجل في مقام المساءلة ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمًا أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم، فلما لم يكونوا من أهل السعادة، وكانوا كما قال الله عنهم ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا سَلَٰٓءًا ۚ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٢٢١﴾﴾ [القيامة: 31، 32] فحينئذ قامت عليهم الحجة، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به كما قال الله تعالى ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ فِعْلَهُمْ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: 35، 36].

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي بهتوا فلم يكن لهم جواب، لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد ردوا على عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسِتَكُونُوا فِيهِ وَالْنَهَارَ مُبْصِرًا ۗ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة، وسلطانة العظيم، وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته والالتقياد

لأوامره، وتصديقه أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذي لا محيد عنه فقال ﴿الْمَرْبُورُوا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِنَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه وتهدأ أنفاسهم، ويستريحوا من نصب التعب في نهارهم ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي منيراً مشرقاً، فبسبب ذلك يتصرفون في المعاش والمكاسب والأسفار والتجارات وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها ﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُفِخَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَنفُوسٍ دَٰخِرِينَ﴾ (٨٧)

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور، وهو كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه، وفي حديث الصور أن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها، وذلك في آخر عمر الدنيا حتى تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء فيفزع من في السماوات ومن في الأرض ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ وهم الشهداء فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون ﴿وَكُلُّ أَنفُوسٍ دَٰخِرِينَ﴾ أي صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره كما قال تعالى ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِمَحْمُودِهِ﴾ [الاسراء: 52] وقال ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُم دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُم مَخْرُجُونَ﴾ [الروم: 25].

﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ لِذِي النُّفُوسِ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا تَفْعَلُونَ﴾ (٨٨)

﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب، أي تزول عن أماكنها كما قال تعالى ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (٩١) ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: 10-9] ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ أي يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي أنفخ كل ما خلق وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا تَفْعَلُونَ﴾ أي هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء.

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ (٨٩)

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قال قتادة: بالإخلاص، وقيل: هي «لا إله إلا الله» وقد بين تعالى في الموضع الآخر أن له عشر أمثاله ﴿وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿لَا يَخْزِيهِمُ النَّارُ الْكُبْرَى﴾ [الأنبياء: 103].

﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْرَجُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٠)

﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي من لقي الله مسيئاً لا حسنة له، أو قد رجحت سيئاته

على حسناته كل بحسبه، ولهذا قال ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقال كثير ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ يعني بالشرك.

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلْ شَيْئًا وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩١)

يقول تعالى مخبراً رسوله وأمرأ له أن يقول ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلْ شَيْئًا﴾ وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٣) الَّتِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴿[قريش: 3-4] وقوله تعالى: ﴿الَّتِي حَرَّمَهَا﴾ أي الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدرأ بتحريمه لها كما ثبت في الصحيحين قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكة، ولا يُتَقَرَّ صيده، ولا يلتقط لقطته، إلا من عرّفها، ولا يختلى خلاها» ﴿وَلَمْ كُلْ شَيْئًا﴾ أي هو رب هذه البلدة، ورب كل شيء ومليكه، لا إله إلا هو. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي من الموحدن المخلصين المتقادين لأمره، المطيعين له.

﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٩٢)

﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ أي على الناس، أبلغهم إياه، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (٥٨) ﴿[آل عمران: 58] أي أنا مبلغ ومنذر ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي لي أسوة بالرسل، الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخلصوا من عهدتهم، وحساب أمهم على الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: 40] وقال ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: 12].

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَرِيرَكُمْ ءَابَتِيهِ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣)

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والإنذار إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿سَرِيرَكُمْ ءَابَتِيهِ فَنَعْرِفُونَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿سَرِيرِهِمْ ءَابَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: 53] ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي بل هو شهيد على كل شيء. روى ابن أبي حاتم عن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس لا يغترون أحدكم بالله، فإن الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والخرذلة والذرة».